بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة

أ.د. حنيفي هلايلي*

الملخص:

إن عثمنة المغرب العربي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، قد وردت مبدئيا في إطار مبادرات شخصية، فوصول الأخوين بربروسة إلى السواحل الإفريقية كان وراء عثمنة الفضاءات المغاربية، بدءاً بالجزائر ثم طرابلس الغرب وأخيرا تونس.

كانت البانوراما السياسية للمغرب الأوسط تتأرجح بين الضعف السياسي والتجزئة الإدارية والقبلية ويرجع الفضل إلى عروج وخير الدين اللذين نجحا تماما، على إثر مجابهتهما مع النظام الإجتماعي والقبلي السابق في أن يضعا حدا لتلك الانتهاكات ولثورات القبائل، وأن يتمكنا فيما بعد، من إرساء استراتيجية وتحالف بين العثمانيين وشيوخ الطرق الدينية ضد العدو المشترك؛ إن النجاح الذي تحقق، قد أدى حتما إلى تبني تصور سياسي مستقبلي، يقضي بربط الجزائر بالدولة العثمانية، وهو الإرتباط الذي رغب فيه بل وطالب به عن طواعية سكان مدينة الجزائر الذين كانت تقضي مضاجعهم الضربات والهجومات الإسبانية ضدهم.

Abstract :

Baba Aroudj and the beginnings of the founding of the modern Algerian state

* أستاذ باحث في التاريخ العثماني والدراسات الإستشراقية ، بقسم التاريخ ، جامعة سيدي بلعباس ، الجزائر.

The Ottomanization of the Arabic Maghreb during the first half of the sixteenth century, had been cited initially in the context of personal initiatives, The arrival of the two brothers Barbaruse to the coast of Africa was tha main reason of the Osmansation of the Maghreb spaces, starting with Algeria and Tripoli, and finally Tunisia.

The political panorama of Morocco East was between the political weakness and the administrative and tribal divisions. Due to Aroudge and Khairuddin, these violations and tribal revolutions stopped when they succeeded completely in fighting this kind of social rule, they could later establish a strategy and an alliance between the Ottomans and The elders of the religious ways against the common enemy. The success that has been achieved, has inevitably lead to the adoption of a future political perception, serving to link between Algeria and the Ottoman state, the link that the residents of Algiers wanted and even demanded by voluntarily, because of the Spanish strikes and attacks against them.

مقدمة:

يعتبر القرن السادس عشر بالنسبة للتاريخ المغاربي، قرنا محوريا إذ شهد تحولا كبيرا جدا على جميع المستويات، وإذ عرف بقرن المجابهات الحربية بين مختلف الأطراف، فهو ولا شك قرن التحولات الضخمة في الأنظمة السياسية والإتصالات المباشرة والبعثات التي حصلت بين أطرافه عبر البحر الأبيض المتوسط، وهو أيضا قرن التحالفات الظرفية والمنافع العاجلة[1]، تلك هي الحقيقة التي تشرح لنا طبيعة الأحداث والصراعات السياسية والعسكرية بالبحر الأبيض المتوسط الغربي.

كان المد الإيبيري في المغرب الأوسط عبارة عن صدمة حقيقية، وقد حاولت الأستغرافية الإيبيرية كلما سنحت الفرصة أن تركز على الأدوار التاريخية التي أدتها شبه الجزيرة في بلاد المغارب والعالم.

كما إعتبر مؤرخوهم أن شبه الجزيرة الإيبيرية صلة وصل بين الحضارة الإسلامية وأوروبا، وقد أشادوا بأدوار الإيبيريين الطلائعية في الإكتشافات الجغرافية بالنسبة للعالم الجديد (1492) ورأس الرجاء الصالح(1496) الذي اختصر الطريق نحو بلاد الهند والصين.

وعليه فإن منتصف القرن السادس عشر، قد تميز ببروز الإخوة بربروسة(عروج- إلياس- خير الدين-إسحاق)درغوثرايس وعلج علي وأندريدوريا، الذين يعتبرون شخصيات محورية وهي شخصيات طبعت أحداث المغرب العربي بما لها من عبقرية أهلّها لتبني خطط واضحة ومدروسة لتحركها السياسي و العسكري[2].

كان التعصب الديني، والرغبة في نشر المسيحية وكذلك الرغبة في زحزحة حدود الإسلام يدفع الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، وطوال القرن السادس عشر إلى التدخل في البلاد الإسلامية بشمال إفريقيا[3]. يقول **بروديل**: "إن الحروب الإسبانية في إفريقيا أخذت صبغة الصليبية الحقيقية، وذلك نظرا للدور العظيم الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت، فالكنيسة بإسبانيا قد ساهمت بكل ما لديها من حماس ومن الجرأة في هذه المعركة، معركة خاصة بها"[4].

إن سقوط غرناطة سنة 1492م، قد عجل بانطلاق الطاقات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار. وقد كانت إفريقيا على قربها الشديد الإختيار المنطقي الأول في هذه الإستراتيجية. وفي الوقت نفسه فإن هجرة الموريسكيين قد خلقت التأزم ووفرت سببا لتعليل التدخل الإسباني[5].

لقد إنطلقت في سنة1505م الأرماردا[6]الإسبانية لإحتلال كل من المرسى الكبير عام1505م ووهران 1509م وبجاية وطرابلس عام1510م والجزائر عام1511.

أما بقية الموانئ الجزائرية وأهمها دلس وشرشال ومستغانم فقد قبلت دفع الجزية والتخلي عن نشاط القرصنة.

وتمكن **بدرونافارو** PedroNavarro من بناء قلعة في إحدى الجزر التي تحمي ميناء الجزائر وأطلق عليها إسم البنيو[7] Penôn.

تمثل أهداف هذا الإحتلال في قطع الطريق أمام الأندلسيين الموريسكيين الفارين وعزلهم داخل إسبانيا.

كما يتضمن برنامج الإسبان بعد هذا الإحتلال تعمير هذه المدن بالإسبان وجعلها مدنا مسيحية. والملاحظ أن نفقات إسبانيا على هذه المستعمرات كانت تغطيها من نفس المنطقة عن طريق الضرائب التي تفرضها على السكان، و بذلك كان يسهل عليها التحكم فيها.[8]

ومن هذا المشهد السياسي نستخلص العناصر التالية:

- ليس هناك دولة مركزية موحدة، قوية ومعترف بها بالمغرب العربي.
- غياب شبه كلي للدفاع عن السواحل التي أصبحت مفتوحة لكل المغامرين وتحقيق المشاريع التوسعية.
- بروز البحارة الشرقيين والموريسكيين-الأندلسيين[9]الذين اعتبروا قوى بحرية جديدة في الفضاء الجغراسياسي للبحر الأبيض المتوسط الغربي في بداية القرن السادس عشر، وهو الأمر الذي مكنهم من مجابهة و محاربة إسبانيا ومد يد المساعدة للموريسكيين داخل التراب الأندلسي.

ومن هذا المنطلق فإن البرتغال وإسبانيا عقدتا اتفاقية لتقسيم مناطق النفوذ بينهما، وقد عرفت بإتفاقية توردي سلاس(**Tordesillas**)، التي تمت

مباركتها من طرف بابا الفاتكان إسكندر بورجيا(Alexandre VI)(1492-1503) معطيا بذلك الصبغة الدينية للغزو الصليبي لسواحل شمال إفريقيا تم بموجبها تقسيم المستعمرات، فتكون الأقاليم الشرقية من نصيب البرتغال، والغربية من نصيب تم بموجبها تقسيم المستعمرات، فتكون الأقاليم الشرقية من نصيب البرتغال، والغربية من نصيب اسبانيا، أما بالنسبة لشمال إفريقيا، فقد أضيفت لها اتفاقية أخرى سنة1509عرفت بمعاهدة فيلا فرنكا(Vilafranca)، تم بمقتضاها جعل المستعمرات الإسبانية في الشرق(الجزائر، تونس، طرابلس الغرب)،[10] والمستعمرات البرتغالية تتمثل المغرب.

وإبتداء من1505م وضعت إسبانيا آلية إحتلال موانىء: المرسى الكبير (1505) وتنس(1507) ووهران (1509) وبينيون الجزائر(1511) وبجاية(1510) ومستغانم (1511).

لقد سعت بذلك لجعل هذه القلاع، حصونا مسلحة، بهدف مراقبة النشاط المتزايد للأتراك العثمانيين والموريسكيين.

إن عثمنة المغرب العربي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، قد وردت مبدئيا في إطار مبادرات شخصية، فوصول الأخوين بربروسة[11] إلى السواحل الإفريقية كان وراء عثمنة الفضاءات المغاربية، بدءاً بالجزائر ثم طرابلس الغرب وأخيرا تونس[12].

كانت البانوراما السياسية للمغرب الأوسط تتأرجح بين الضعف السياسي والتجزئة الإدارية والقبلية ويرجع الفضل إلى عروج وخير الدين اللذين نجحا تماما، على إثر مجابهتهما مع النظام الإجتماعي والقبلي السابق في أن يضعا حدا لتلك الانتهاكات ولثورات القبائل، وأن يتمكنا فيما بعد، من إرساء استراتيجية وتحالف بين العثمانيين وشيوخ الطرق الدينية ضد العدو

المشترك؛ إن النجاح الذي تحقق، قد أدى حتما إلى تبني تصور سياسي مستقبلي، يقضي بربط الجزائر بالدولة العثمانية، وهو الإرتباط الذي رغب فيه بل وطالب به عن طواعية سكان مدينة الجزائر[13] الذين كانت تقضي مضاجعهم الضربات والهجومات الإسبانية ضدهم.

أولا: دخول الإخوة بربروسة الجزائر وبنائهم صرح الدولة الجزائرية الحديثة

1- عروج رئيس في تونس:

هناك إختلاف حول أصول عروج و إخوته، وكان بداية أمرهم نشاط عروج وإخوته ضد السفن المسيحية وفي خدمة الإسلام والمسلمين.

يلف الغموض تاريخ عروج في مراحل نشاطه الأول،ففي القرن السادس عشر إنتقل نشاط عروج وأخوته من المتوسط الشرقي إلى المتوسط الغربي فجأة، ربما كان سبب هذا الإنتقال مضايقة السلطة العثمانية لنشاطهم، وسقوط أكثر المراكز البندقة في يد العثمانيين، مما دفع بهم إلى البحث عن مواقع جديدة لنشاطهم البحري.

وبدت سواحل شمال إفريقيا، حيث الفوضى في الداخل والصراعات القائمة بين الأسر الحاكمة، وحيث تمر كل تجارة المتوسط، المكان المفضل لنشاط القرصنة.

إتفق بعد هذا مع السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن(1494-1526) المتوكل على أن يقيم في ميناء حلق الوادي مقابل أن يدفع له خمس الغنائم التي يحوزها هو وبحارته من غزواته البحرية، حيث كان يقوم بالاستيلاء على السفن الأوروبية ويغنم ما بها من بضائع.

ويرى بعض المؤرخون أن من دهاء الأخوين عروج وخير الدين السياسي أنهما إتصلا بالسلطان العثماني سليم الأول(1512-1520).

قام الإخوة بربروسة بإرسال الهدايا له وكانت هذه الخطوة فاتحة للعلاقات بينهم وبين الدولة العثمانية.

عقد عروج رئيس اتفاقا مع السلطان الحفصي[14]الذي منحه بموجب الاتفاق الحاصل بينهما جزيرة جربة، ليتخذ منها قاعدة لأسطوله البحري.و مابين 1504-1510 حصل عروج على سمعة و هيبة بسبب جرأته و إنقاذه للموريسكيين في عدة حملات بحرية، فارتفعت عدد سفن أسطوله من2إلى14 سفينه بفضل الغنائم المتحصل عليها جراء النشاط البحري في إطار الجهاد.

وقد تعهد للسلطان الحفصي قبل ذلك بخمس الغنائم ليصبح عروج رئيس قائدا على جربة[15].

ترك عروج ميناء بجاية منسحب إلى مدينة جيجل، والتي فتحها بعد معركة بينه وبين حامية جيجل التي تعمل لحساب مدينة جنوة الإيطالية، وكانت مدينة جيجل أول مدينة يفتحها على ساحل البلاد .

كان انسحاب عروج من بجاية لكي يترصد للقوات الإسبانية التي علم أنها تحركت من جزيرة ميورقة إليهم، وإشتبك مع هذه القوات في معركة كبيرة أسفرت عن إستيلائهم على جميع سفنهم وقتل أغلب الجنود الإسبان حيث لم يبق منهم سوى القليل والذين اتخذوهم أسرى ليعملوا بالتجديف .بعد أن استولى البحارة على جميع السفن الإسبانية العشرة القادمة من ميورقة، إستعملها خير الدين للإحتيال على الجنود الإسبان في قلعة بجاية فقام بنشر الرايات الإسبانية وأمر خمسمائة بحار بأن يكمنوا في هذه السفن وإتجهوا صوب بجاية، وكان الإسبان المتحصنون في القلعة ينتظرون المدد من

هذه القطع البحرية، وعند رؤيتهم لها فتحوا أبواب القلعة، وأمر خير الدين البحارة بالخروج إلى الساحل، وما إن سمع الإسبان صيحات البحارة حتى استسلموا وطلبوا الأمان، وتمكن خير الدين من فتح القلعة بسهولة، وكان عروج في نفس الوقت في مدينة جيجل.

2- عروج رئيس(1512-1518) ومرحلة إعادة توحيد جغرافية الجزائر الشمالية:

في سنة1512إستنجد علماء وأعيان بجاية وحاكمها بعروج لتحريرهم من ربقة الإحتلال الإسباني فلبى عروج الدعوة وحاصر بجاية، وكانت النتيجة أن بترت ذراع عروج في إحدى المعارك، وعاد إلى تونس.

وفي سنة1514انتقل عروج إلى بجاية وجعلها قاعدة لإنجازاته البحرية، وهو الأمر الذي جعله يتطلع عن كثف على أحوال المغرب الأوسط، حيث كان الصراع محتدما بين سلاطين بلاد القبائل من بني عباس وآل القاضي سلاطين كوكو.

كان موت فرديناندو سنة 1516 مؤشر خير النشاط البحري لدى عروج الذي إستنجد به سكان مدينة الجزائر بواسطة رئيسهم سالم التومي لتحرير قلعة الصخرة من يد الحامية الإسبانية التي يرابط بها200جندي إسباني فحرر شرشال، وعندما فشل في تحرير الصخرة بدأت المؤامرات تحاك ضده من طرف سالم التومي والإسبان، فتمكن عروج من قتل سالم والتفرد بحكم مدينة الجزائر[16].

بعد مقتل سالم التومي قام عروج بهجوم على حصن البنيون دون أن يتوصل إلى الإستيلاء عليه لا هو ولا أخوه من بعده، غير أن الأقوات نفذت من

أيدي من كانوا بالحصن من الجنود إذ لم تعد الأزواد تصل إليهم كما كان الشأن في عهد سالم التومي، وعندئذ قام مارتين فاركاس الذي كان الحاكم والمدافع عنه بإعلام الملك بتلك الحال، وبينما كان ينتظر النجدة من إسبانيا، سارع بربروسة بتوجيه طلب إلى مارتين فاركاس بالإستسلام لكنه رفض عندئذ قام بربروسة بمهاجمته وقتل مارتين وتم الإستيلاء على الحصن[17].

والجدير بالذكر أن مارمول أرجع سبب بناء هذا الحصن إلى ما كان يقوم به القراصنة–على حد تعبيره-إنطلاقا من مدينة الجزائر، ولكن ربما كان هذا مجرد سبب واحد من أسباب عديدة لعل أهمها إستراتيجية المكان وحصانة الطبيعة إضافة إلى تنفيذ الوصية التي تركتها الملكة ايزابيلا قبل وفاتها والتي تنص على السلم مع الدول المسيحية والتوسع على حساب الدول الإسلامية في الجنوب، تمكن من إحباط حملة إسبانية بقيادة دون دييغو دوفيرا(Don Diego de verra)على مدينة الجزائر سنة1516.بعد توطيد عروج الحكم في مدينة الجزائر توسع شرقا و غربا فضم إليه مليانة وتنس والمدية واستدعى أخاه خير الدين لمساندته في الحكم فجعله أميرا على أرضي الشرق ودلس عاصمة له.

قام عروج بتقسيم مملكته الجديدة إدارياً إلى مقاطعتين: مقاطعة شرقية يشرف عليها أخاه خير الدين ومقرها مدينة دلس، ومقاطعة غربية يشرف عليها بنفسه ومقرها الإداري مدينة الجزائر العاصمة، وكانت كل مقاطعة تضم خمس بلديات.

كانت مدينة تنس تحكم من قبل بني زيان، وكان عروج يرغب في أن يضمها إلى نفوذه، فتوجه لها أخوه خير الدين، وبعد أن وصل للمدينة قام

بالنزول للبر في ألف وخمسمائة جندي وعسكر قبالة القلعة، وإكتشف أن الإسبان قد غادروا القلعة مع أمير تنس هاربين.

وبعد فترة جعل خير الدين أحد الضباط نائباً على تنس متوجهاً للجزائر، وبعدها رجع أمير تنس إليها وإستولى عليها من جديد بمساعدة الإسبان[18]. فغضب عروج وقرر الخروج إليها بنفسه وذلك بعد أن إستصدر فتوى من علماء الجزائر وقد ذكرها أخوه خير الدين في مذكراته وهي«:ما حكم الشرع فيمن تمالا مع الكفار الإسبان وبايع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين، وقابل نصحنا بالكنود؟ وكان جواب العلماء هو: قتله واجب ودمه هدر وماله مباح، ثم كتبت الفتوى وأخذ عروج نسخة منها».[19] خرج عروج إلى تنس، وعند إقترابه منها قام أهالي تنس بتقييد الأمير وتسليمه إلى عروج، فقتله فوراً وقام أيضاً باستدعاء عدد من الوجهاء وقام بقتلهم كلهم أيضاً.

وهكذا انضمت المدينة إلى نفوذه بدون أية معارك تذكر. قام عروج بتحرير القلاع والمدن الجزائرية تباعا، مثل شرشال، مستغانم، دلس، الجزائر، تنس[20].

تحتل مدينة تلمسان أهمية كبرى نظراُ لأهمية موقعها ومركزها الهام، وكانت مركزا رئيسيا في المغرب وحافظت على ذلك لفترات تاريخية طويلة، إلا أنها في بداية القرن السادس عشربدأت بالانهيار وذلك بعد تسلط الإسبان عليها، ونتيجة للإهمال والفساد الذي كان يسودها من قبل الحكام من أسرة بني زيان حرمت الإمارة الزيانية من الاستقرار و أفرغت من قاعدتها البشرية بسبب الحروب المتتالية، والهجرة المستمرة لرعاياها، فلم تظهر كقوة مستقلة، مما كان له إنعكاسات إجتماعية وإقتصادية وأمنية، يضاف إلى ذلك الصراع حول العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة، ومهادنة الإسبان منذ1503،

والإعتراف بهم في تواجدهم العسكري بوهران والمرسى الكبير، فكان الخضوع على المستوى الرسمي من الملوك والأمراء، وبعض القبائل العربية المحيطة بوهران مثل بني عامر.[21] تولى حكم المدينة في سنة1516 م" أبو زيان"، لكن أنصار عمه أبو محمد تمكنوا من خلعه في نفس السنة، ونُصب"أبو حمو الثالث"حاكماً عليها تحت الحماية الإسبانية شكل أهالي تلمسان وفداً ذهب إلى عروج لطلب المساعدة حيث لم يكن الأهالي راضين عن حكم"أبي حمو".

وثار لاحقاً أهالي تلمسان وفر السلطان، وقام الأهالي بإرسال وفد إلى عروج يبايعونه سلطان عليهم ودخلت البلاد في ولايته دون قتال.

توجه عروج صوب تلمسان بقواته وذلك بعد أن ترك أخاه خير الدين نائباً له في الجزائر، وفي طريقه ترك أخاه الأكبر إسحاق رئيس على رأس حامية عسكرية لحماية خطوط رجعته. في قلعة بني راشد وبعد أن دخل عروج إلى تلمسان سلم الحكم إلى"أبو زيان"الحاكم السابق لها، ولم تلبث البلاد إلا أن عادت فيها الفوضى السابقة، فخلع الحاكم وقتله وأعلن نفسه حاكماً على البلاد[22].

والظاهر أنه عندما أصبح عروج حاكماً على تلمسان أمر بقطع جميع العلاقات مع وهران التي كانت تحت حكم الإسبان، وقام بإعلام العثمانيين بإنتصاراته من قوات ومعدات حربية وفرض إجراءات أمنية مشددة وأرسل مفارز عسكرية إلى المناطق المجاورة لأخذ الطاعة منها، وقام بإحتلال "وجدة"، وأخضع قبيلتي بني عامر وبني يزناسن، ولقلة قوات عروج أُرسلت قوة من طرف أخيه في الجزائر قامت بإحتلال قلعة بني راشد الواقعة بين طريق الجزائر وتلمسان وجعل، وقام الإسبان مع حلفائهم من العرب بمهاجمة القلعة إلا أن الأتراك شنوا عليهم هجوماً أدى إلى تشتت القوات الإسبانية وتمكنوا من قتل سبعمائة شخص وأسر مائة.

أرسل خير الدين قوة أخرى تتكون من حوالي ستمائة شخص بقيادة أخيهم الأكبر إسحاق ونائبه إسكندر، وأرسل الإسبان قوة أخرى أيضاً بقيادة أبي حمو وأرسلها إلى قلعة بني راشد وعمد هؤلاء فور وصولهم إلى محاصرة القلعة وقطع الإمدادات عنها، ولكسر هذا الحصار قام إسحاق ريس إلى جانب نائبه إسكندر بشن عدة هجمات والتي ألحقت بالطرفين خسائر كبيرة.

اضطر الأتراك بعد مقاومة كبيرة وشدة القصف على القلعة إلى تسليم القلعة بشرط أن يخرجوا بأمتعتهم وأسلحتهم صوب تلمسان، وطلبوا12رهينة من الجنود الإسبان لتنفيذ الاتفاق بشكل سليم، وعندما بدأوا بالخروج من القلعة، قام الإسبان بنقض الاتفاق وحاولوا أخذ الأسلحة من الأتراك وأدى هذا إلى موتهم جميعاً[23].

كانت رغبة عروج القضاء على المملكة الزيانية والتفرد بحكمها فقاد جيشا وفتح تلمسان سنة 1517وخلع سلطانها أبي حمو الزياني ولكنه نكث بعهده للسلطان المتعاون معه أبا زيان، فقتل سبعين من أسرة الزيانيين الناقمين عليه. كما توغل نحو الغرب فوصل إلى وجدة وأخضع قبائل بني يزناسن

و أجرى مفاوضات مع الأسرة الوطاسية في فاس للتعاون معهم ضد الإسبان المحتلين لمواقع مغربية كثيرة في الشمال[24].

بعد مقتل سالم التومي قام عروج بهجوم على حصن البنيون دون أن يتوصل إلى الإستيلاء عليه لاهو ولا أخوه من بعده، غير أن الأقوات نفذت من أيدي من كانوا بالحصن من الجنود إذ لم تعد الأزواد تصل إليهم كما كان الشأن في عهد سالم التومي، وعندئذ قام مارتين فاركاس الذي كان الحاكم والمدافع عنه بإعلام الملك بتلك الحال، وبينما كان ينتظر النجدة من إسبانيا،

سارع بربروسة بتوجيه طلب إلى مارتين فاركاس بالاستسلام لكنه رفض عندئذ قام بربروسة بمهاجمته وقتل مارتين وتم الإستيلاء على الحصن[25].

والجدير بالذكر أن مارمول أرجع سبب بناء هذا الحصن إلى ما كان يقوم به القراصنة–على حد تعبيره- انطلاقا من مدينة الجزائر، ولكن ربما كان هذا مجرد سبب واحد من أسباب عديدة لعل أهمها إستراتيجية المكان وحصانة الطبيعة إضافة إلى تنفيذ الوصية التي تركتها الملكة ايزابيلا قبل وفاتها والتي تنص على السلم مع الدول المسيحية والتوسع على حساب الدول الإسلامية في الجنوب.

ثانيا : عروج و دائرة الصراع في تلمسان

إذا كان الوزان لا يذكر من الحياة السياسية لتلمسان سوى مرحلة ما قبل مجيء عروج أي الصراعات مع المرينيين، فإن مارمول قدم لنا نصوصا تكاد تكون مفصلة عن أصل عروج ومجيئه للجزائر ثم تلمسان وصراعاته مع ملوك بني زيان والإسبان هناك، ظلت عائلة بني زيان تحكم تلمسان لفترة من الوقت ففي سنة1475م حكمها محمد ثابت بن المتوكل، وفي سنة1505م خلفه إبنه أبو عبد الله محمد، وفي1516م خلفه أبو زيان لكن أنصار عمه أبو محمد عارضوه وتمكنوا من خلعه في نفس السنة وسجنوه وحكمها أبو حمو باسم حمو الثالث ولكنه ظل تحت الحماية الإسبانية،[26] ولم يستطع الأهالي تحمل الإهانات فطلبوا المساعدة من عروج فأعد هذا الأخير قواته وتوجه إلى تلمسان ببعد أن تحرك أخاه نائبا له في الجزائر.

نستشف من نصوص مارمول أن قوات عروج وهو في طريقه إلى تلمسان انضم إليه عدد من الأعراب والبربر بقصد طرد السلطان الزياني أبي حمو الثالث الموالي للإسبان وتمكين ابن أخيه السلطان أبا زيان المسعود،

وعندما وصل أمام المدينة أدخله السكان المتحالفون معه بعد أن طالبوه بأن يحلف على أنه لن يضر بأهل المدينة وأنه لن سيطلق سراح الأمير الشاب ويعيد إليه تاجه، وفي أثناء ذلك كان الملك قد فر من باب سري في قصره متجها إلى الجبل، وبعد تمكن بربروسة من المدينة أفرج حينا عن الأمير الشاب الذي كان مسجونا في القلعة وبعد بضعة أيام قتله وتخلص من أنصار الأمير الشاب الذين استقدموه مخافة أن يتآمروا ضده، وأعلن نفسه ملكا لتلمسان تحت سلطة الخليفة العثماني السلطان سليم الأول(1512-1520).

نستقرأ من نصوص مارمول أو ما كتبه في شأن عروج رئيس في النقاط التالية:

- لم يذكر مارمول حادثة تصدي أبو حمو موسى الثالث لقوات عروج قبل وصولها لتلمسان في سهل آغبال وإنهزامه.

- مارمول كعادته ينتقص من تضحيات عروج ويصفه وكل ما هو مغربي أو إسلامي بأقبح النعوت ويبالغ في قساوة عروج على أسرة بني زيان فذكر أنه رمى بهم هو في غدير حيث غرقوا وهو مغتبط بحالتهم المفجعة.

- إن مارمول لما ذكر دخول عروج لتلمسان والظروف التي أطلق فيها سراح أبا زيان وولاه شؤون الدولة، لكن هذا الأخير لم يكن يثق في عروج لأنه خشي أن يقع له ما وقع لسالم التومي لذا حاول كسب ود أهل لمناصرته ضد عروج، أخطأ حين قال:" أن خير الدين لما دخل تلمسان استعمل عليها عروج ثم بعد إنصرافه تعصب المسعود (أبو زيان) من ملوك تلمسان بجيش عظيم وخطب على منبر الجامع الأعظم وذكر شؤون ملوك الجزائر، ورغب الناس في مساعدة بني عبد الواد، فهجموا على عروج ثم زحف إليهم بمن معه، وكان

شديد البأس فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعمائة من المترشحين للملك من بني زيان وستون من بني عمهم وأكثر من ألف من أهل البلد"[27].

1- **استشهاد عروج:**

-عندما خرج عروج لإخضاع القبائل المتمردة في الغرب الجزائري، وإنشغاله بالتفاوض مع الوطاسيين عن إمكانية التعاون معهم لمواجهة الإحتلال الإسباني للثغور الجزائر والمغرب،[28]أعلن السلطان الزياني أبي زيان تمرده، ورغب أهالي تلمسان في مساعدة بني عبد الواد فهجموا على عروج ثم زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة فأمر عروج بإعدام السلطان الزياني، وقتل سبعة من أبنائه وسبعون من عائلة بني زيان وأكثر من ألف من أهل البلد"[29]بينما توجه أبو حمو الثالث إلى حاكم وهران للإستنجاد بالإسبان ومقابلة الملك شارل الخامس، الذي أصدر أوامره للحامية الإسبانية بمساعدة السلطان الزياني والقضاء على الحامية العسكرية العثمانية بقيادة عروج.

إنطلقت قوات إسبانية نحو مدينة تلمسان وعمدت على فرضحصار قوي ومحكم، إلا أن عروج دافع دفاعاً مستميتاً عن المدينة، ودامت فترة الحصار ستة أشهر، وكان القتال بين الطرفين مستمراً في هذه الفترة، وتمكن الإسبان من السيطرة على مناطق الإستحكام، وتحولت المعركة إلى قتال شوارع، وفقد عروج سيطرته على المتاريس الداخلية، فانسحب إلى القلعة الداخلية، إستمر بالمقاومة حتى وهو ضمن القلعة. ضجر سكان تلمسان من الحصار الطويل، فإتفقوا فيما بينهم على ضرورة ترك الأتراك، وعندما حل يوم عيد الفطر طلب الأهالي منه السماح لهم بالصلاةفي" جامع المشور".

عند دخولهم القلعة الداخلية، سلوا سيوفهم وبدأوا بقتل الأطفال، إلا أن عروج تمكن من السيطرة على الموقف وقام بتطويق الأهالي بعدها أمر

عروج بالإنسحاب لقلة عدد الجنود الأتراك المتبقين، وكان هذا يعني إختراق صفوف أعداءه لكي يصل للساحل في إنتظار سفن أخيه خير الدين.

فاستغل ظلام الليل وتمكن من الخروج من دون يشعروا به إلا بعد عدة ساعات، ولما علم الإسبان بذلك قامت فرقة من الخيالة بملاحقته، وحاول أن يشغلهم بإلقاء ما لديه من المال والأشياء الثمينة ولم يفده ذلك، واستمرت الفرقة بملاحقته حتى أضطر على الإلتجاء في خرابة قديمة، وبدأ بالتصدي لهم في معركة غير متكافئة، وظل يقاتل حتى مات كل رجاله وقتل. وكان ذلك في شهر ماي سنة 1518 م، وقُطع رأسه وحُمل مع ألبسته إلى إسبانيا التي طيف بها في أغلب المدن الإسبانية ثم أودعت في كنيسة سانت جيروم في قرطبة[30].

فالمصادر تجمع على أن خير الدين لم يترك الجزائر خلال توجه عروج لتلمسان للدفاع عن المدينة في حالة الهجوم عليها، ونعود لما كتبه مارمول خرج أبو حمو من وهران ليتسلم التاج وعرض نفسه كتابع دائم لملك إسبانيا يرسله إليه كل سنة اثنا عشر ألف قطعة ذهبية وأثنا عشر فرسا وستة صقور إناث فوفى بذلك طيلة حياته[31].

2- **مكان إستشهاد عروج:**

وقع تضارب كبير حول مكان إستشهاد عروج ورفقائه بعد هروبهم من تلمسان وملاحقة الإسبان وجنود أبي حمو لهم. هناك مصادر تقول أنه عاد إلى وادي المالح لإسترجاع كنوز بني زيان وهناك قتل، لكن المصادر الإسبانية والتي تم ترجمتها من طرف المدرسة التاريخية الفرنسية خلال المرحلة الاستعمارية للجزائر كلها أشارت إلى منطقة وجدة بالمغرب[32].

من خلال استقراء دراسة تاريخية قام بها أحد الباحثين الفرنسيين غرول(A.Graulle) بناء على المخلفات الأثرية للهياكل العضمية، أكد بأن عروج

و جنودهم يقبعون في قبور التركي بوجدة المغربية في منطقة الأنجاد التي تبعد ب50كلم عن منطقة وجدة التي تكتب في المصادر الإسبانية (Rio Huexda)، وهذه المنطقة تبعد عن تلمسان ب80كلم[33] وقد عثرت بعثة أثرية إلى عين المكان في سنة1913.

فوجدت هياكل عظمية منها هيكل مبتور الذراع ورأسه غير موجودة. أما دراسة بربروجر والتي نهل منها باحثون كثيرون ففيها من المعطيات التي تشير أن الاعتقاد السائد بإستشهاد عروج كان في وادي المالح التي تبعد عن عين تموشنت ب11كلم(Rio Salado).

لقد برهن بربروجر (Berbrugger) بفضل وثائق إسبانية (Gomara,Cronica de los Barbarojas) أن عروج لقي حتفه بعيدا عن تلمسان ب23 مرحلة أي غرب تلمسان ب 92كلم، في إقليم دبدو حيث قبائل بني يزناسن قرب أعالي جبل بني موسى، وهذا حسب شهادة الراهب الإسباني المعاصر للأحداث ساندوفال(Ximenes de Sandoval)،[34] وما أكده مارمول في كتابه إفريقيا[35].

ونخلص في الأخير أن إستشهاد بابا عرج ورفاقه في النضال لتحرير المواقع الجزائرية من براثن الإحتلال الإسباني، وتطهير البلاد من الخونة والمتواطئين مع المحتل في ظرف قياسي لايتجاوز ست سنوات من الجهاد(1512-1518)، لم تذهب أدراج الرياح، فقد تمكن عروج من كيفية إستغلال الفراغ السياسي الرهيب الذي شهدته الجزائر، ليؤسس دولة قوية شملت في بدايتها توحيد الجغرافيا السياسية منجديد من جيجل شرقا إلى

مستغانم غربا، و من البحر شمالا حتى المدية جنوبا. فرسم معالم جديدة لإقامة نظام سياسي في المغرب الأوسط هو الجزائر الحديثة.

كان هذا التوسع على حساب الاحتلال الإسباني في المناطق الساحلية، وعلى حساب المتخاذلين من أمراء الإمارة الزيانية والإمارات المحلية المتنافسة على الزعامات.

أوجد بابا عروج مفهوم الدولة الوطنية الموحدة لدى الجزائريين، وأبعد الخطر الإسباني الذي كان يرمي ثقل جهده في إحتلال المناطق الداخلية ليجد نفسه محاصرا وراء القلاع والحصون في منطقتي وهران والمرسى الكبير.

الهوامش:

* أروج بن أبي يوسف يعقوب التركي أو عروج بربروسة، (879- 924 هـ/1474- 1518م) يشتهر أيضاً بلقب بابا عروج وعروج ريس أما بالتركية، (OruçReis) قبطان وأمير مسلم اشتهر هو وأخوه خير الدين بجهادهما البحري في شمال إفريقيا وسواحل البحر المتوسط إبان القرن السادس عشر الميلادي، ولد في جزيرة ميديلي العثمانية، وعمل في شبابه في التجارة ين سلونيك وأغريبوز. اتصل بالسُلطان المملوكي قنصوه الغوري وجعله قائداً على الأسطول الذي قام بإنشائه لمحاربة البرتغاليين، إلا أنه تعرض لغارة كبيرة من فرسان رودس أدت إلى انتهاء هذا الأسطول قبل أن يكتمل، اتصل بالأمير العثماني كركود بن بايزيد الثاني(1484-1512) الذي ساعده بعد أن أهدى له سفينة ليبدأ من جديد. وعمل عروج بجانب أخيه خير الدين أثناء تواجده بالمتوسط الغربي على إنقاذ عدد كبير من اللاجئين المورسكيين الأندلسيين الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية، وخلال هذه الفترة اكتسب اسمه الذي أطلقه عليه في الجزائر" :بابا عروج." لمزيد من المعلومات يرجى مراجعة المصادر و المراجع التالية:

مذكرات خير الدين بربروس، (ترجمة محمد دراج)،ط1، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 1431هـ/2010، ص ص 29-32.

المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792م)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976من ص159-175.

محمد، دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس(1512-1543)،ط2، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع،1434 هـ/ 2013م، ص ص 155-178.

المزاري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التساعر عشر، ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1990، ج1، ص250.

تمكن الإخوة بربروسمة من إنقاذ حوالي 70 ألف موريسكي من إسبانيا مابين 1512-1528، بمعدل 33 غارة بحرية، ينظر: نورالدين، عبد القادر، غزوات عروج و خير الدين، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1934، ص ص 48-82.

1. إن البحوث و التأليف عن القرن السادس عشر المتوسطي ضئيلة نسبيا. وهذا بدءا برسالة بروديل (Braudel) ثم عديد المقالات المنشورة بـ Revue Africaineوالمجلة التاريخية المغاربية وكراسات تونس وغيرها من المجلات.
2. عبد الجليل التميمي"التشكل الإداري والجغراسياسي للأيالات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب (1557-1588م).في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو (جمع و تقديم: عبد الجليل، التميمي)، زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ج2، أكتوبر- نوفمبر ،1997م، ص452.
3. Fernand, Braudel, « les Espagnols en Afrique du Nord de 1492 à 1577 », in R.A(49),1928, pp.198-199.
4. Ibid, p. 201

5. وليم، سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (تعريب و تعليق: د. عبد القادر زبادية) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص27.
6. كلمة إسبانية تعني الجيش البحري الكبير في العدد والعدة.
7. في سنة 1511 سافر وفد جزائري إلى إسبانيا، وإتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية، وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية، وتجعل مدينة الجزائر تحت

مراقبتهم. فصارت القلعة تعرف منذ ذلك الحين بصخرة الجزائر أو قلعة الجزائر(Penon d'Alger).أصبحتالصخرةشوكةفيحلقالجزائريين.تم تحريرها من طرف خير الدين سنة 1529، ومنذ هذا التاريخ أصبحت الجزائر ميناء بحري يحسب له ألف حساب في الحوض الغربي للمتوسط. يراجع:

-المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792م)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976م. ص ص 126-128.

-محمد خير، فارس، تاريخ المغرب الحديث المعاصر، منشورات جامعة دمشق، 1041-1402هـ/1981-1982م، ص105.

-الوزان، الحسن بن محمد، وصف إفريقيا (ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر)، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983م.ج2،ص ص 37-38.

8. Elie, de la primaudi, « Documents inédits sur l'histoire de l'histoire de l'occupationEspagnols en Afrique (1516-1574) », in, R.A (N°20), 1876, PP. 136-150.

9. للمزيد من التفاصيل حول موضوع الموريسكيين الأندلسيين وهجراتهم إلى الجزائر، راجع: حنيفي هلايلي، "الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 17م"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 1999-2000م.

10. محمدخير، فارس، المرجع السابق، ص100. وأيضا وُقعت معاهدة توردیسیلاس(موجودة حاليًا في مقاطعة بلد الوليد، إسبانيا)،في7جوان1494، بين ملك البرتغال خوان الثاني والملكان الكاثوليكيان لمملكة إسبانيا فرديناندو وإيزابيلا .يراجع:

Traités de Tordesillas (traduits de l'espagnol par Bernard Lesfargues et présentés par Bartolomé Bennassar), La Différence, Paris, 1991, 124 p.

11. قدم الإخوة بربروسة (عروج، إلياس، إسحاق، خير الدين) من جزيرة ميديلي Medeli مقابل ساحل بحرايجة لتركيا، وقد إتبع هؤلاء الإخوة طريق العمل البحري منذ وقت مبكر.

12. عبد الجليل، التميمي"التشكل الإداري و الجغراسياسي للأيالات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب (1557-1588م).في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو (جمع وتقديم :د.عبد الجليل التميمي)، زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات،ج2، أكتوبر- نوفمبر ،1997 م، ص 452.
13. عبد الجليل، التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد6، تونس، جويلية، 1976م، ص 116-120.
14. مذكرات خير الدين... ، المصدر السابق، ص ص 52-53.
15. حول حياة عروج ونشاطاته البحرية ينظر:

Michel, Hervé, Les débuts de la Régence d'Alger de1518- à 1566, Corlet numerique, France, 2005, pp.18-31.

Sander Rang et Ferdinand Denis, Fondation de la régence d'Alger, Histoire des Berberousse, Maulde et Renou, imprimerie, 1837, T1, pp.4-33.

Charles, de Rotalier, Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la méditerranée à dater au seizième siécle, Paris, 1841, T1, pp.75-1000.

16. يحيى، بوعزيز، علاقات الجزائر مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، طبعة خاصة، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع،2009، ص ص 36-37.
17. مارمول، كاربخال، إفريقيا، (ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر)، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط: مطابع المعارف الجديدة،1408-1409هـ/1988-1989م، ج2، ص 364.
18. محمد خير، فارس، المرجع السابق، ص ص 109-110.
19. مذكرات خير الدين، ص 83.
20. غزوات عروج وخير الدين، ص31.
21. حول مداهنة الإسبان من طرف أعراب بني عامر يمكن العودة إلى، عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من

الأعراب كبني عامر،(تحقيق: محمد بن عبد الكريم)، بيروت: مكتبة الحياة، بدون تاريخ. وأيضا:

BODIN (M.), «L'agrément du lecteur. Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran par Si Abdelkader el Mecherfi », In,RA,n° 65, 1924, p. 193-260.

22. محمد، خير فارس، المرجع السابق، ص109.
23. محمد، دراج، الدخول العثماني...، ص ص 224-225.
24. المرجع نفسه، ص 224.
25. مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 364.
26. يمكن مراجعة تاريخ الدولة الزيانية في:ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية(تقديم و تحقيق و تعليق: هاني سلامة)،ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1421هـ/2001م.
27. مارمول، المصدر السابق، نفسه، ج 2، ص 307.
28. ظهرت دولة بني وطاس بعد المرينيين مابين (1420-1554)،تعرضت خلال مراحل تأسيسها إلى الغزو البرتغالي الذي استولى على مناطق تطل على المحيط الأطلسي من أم الربيع إلى نهر سيبو. فاستولوا على أغادير سنة 1505،و أسفي سنة 1508و أزمور سنة 1513، أما الإسبان فاستولوا على مليلية سنة 1497، وحجر باديس سنة 1507. ينظر: محمد خير،فارس، المرجع السابق، ص ص 5-15.
29. مارمول، المصدر السابق، ج 2، ص 307.

Berbrugger,A, Le Pégnon d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algérie ,Paris ,Challamel libraire,Alger,1860,p.58.

30. De Rotalier,Charles,Histoire d'Alger et de la piraterie des turcs dans ma méditerranée a dater au seizième siécle,Paris,1841,pp.121-124.
31. مارمول، المصدر السابق، ج 2، ص310.

32. أشار بربروجر بأن هذه المسألة تم مناقشتها و دراستها في عديد البحاث المنشورة في مجلة الأخبار والمجلة الإفريقية، ينظر: Berbrugger, A, Le Pégnon op.cit, pp.60-61.

Fey, Henri-Léon, Histoire d'Oran, avant, pendant et après, Oran, Adolphe Perrier, 1858,p.33.

Sander Rang et Ferdinand Denis,op.cit,2.p.176.

33. Graulle ,A, « la mort et le tombeau de baba Aroudj »,In Revue du monde musulman ,n° 24,1933,pp.246-259

34. Berbrugger,A, «La mort du fondateur de la régence d'Alger »,In,RA,n°4,1859-1860,pp.25-33.

35. مارمول، المصدر السابق، ج2، ص364. وتؤكد مصادر أخرى نفس المعلومات:

Haedo,Fray Diego,Histoire des rois d'Alger, Traduit et annotée par Grammont-D-De,Alger, Adolph Jourdan,1981,pp.3-15.